وللمجلس الإسلامي كلمة أخرى

بقلم سالم عزام
الامين العام

الشرق الأوسط

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين »

ابدأ ردي الثاني على الاخ محمد احمد جمال بهذه الآية الكريمة ، اعتصم بها واضرع الى الله تعالى أن يعصمني من مجاراته فيما تورط فيه .

لقد انزلق الاخ الكريم ـ دون سبب ـ الى اسلوب اللمز والطعن .. والتعريض بالناس ، ولم يتورع عما يدخل في نطاق السباب الذي يربأ المسلم بلسانه وقلمه ان ينزلق اليه .. فقط اذكره بقول الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » واظنه يحفظ قوله عليه السلام : « سباب المسلم فسوق » .. غفر الله لنا وله .. ونعود الى اصل القضية ، لا نشغل الناس عنها بهذه المسائل الشخصية التي يجب ان ينتزه عنها حوار المسلمين .. فليس من دأبنا التهجم على ضمائر الناس بغير بينة .. ولا يشغلنا أن يتهجم علينا احد بغير بينة كذلك ..

في مقاله الثاني بـ « الشرق الاوسط » (٢٧/٥/١٩٨٢) قال : « ونبدأ التعقيب على السيد سالم عزام فيما اقترفه من تخليط وتشويش ـ بين منهج الأمر بالمعروف في الاسلام وبين منهج مواجهة الرعية للراعي الخ .. » .

تعميم مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. في نظر السيد جمال خلط وتشويش لانه في هذه الحالة سوف يتناول الحكام .. والولاة .. والرعاة .. كما يتناول سائر افراد الأمة .. وهو لا يريد ذلك .. ولا يقره . ويريد ان يخص هؤلاء بمنهج مزعوم يقوم على التفرقة والتمييز بين الراعي أو الامام أو الحاكم وبين سائر المسلمين .. وبحيث يخرج هؤلاء من سيادة هذا المبدأ العام ويوقف تطبيقه بالنسبة لهم !

يقول اننا نخلط بين موضوعين أو منهاجين غريبين متباعدين .. منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ومنهاج التعامل مع الحاكم الظالم أو الفاسق « بنص عبارته .. » ولا ندري لماذا انحرف السيد جمال عن موضوع قضيتنا وهو « الخروج على الحاكم أو الامام أو ولي الأمر الى موضوع اخر بعيد وغريب عن القضية التي نجادل فيها .. موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هذا هو الموضوع البعيد الغريب عن القضية . في نظره أن :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعيد وغريب عن القضية التي يعرضها فما بال مقاله يكاد ينصب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى تقديم تفسيرات وآراء تخيرها ـ لتتفق مع غرضه ـ ان هذه التفرقة المزعومة وتخصيص الحكام بمنهاج .. وسائر الأمة بمنهاج اخر هو الخلط والتشويش .. وهو تشويه للحق .. وتلبيس له بالباطل .. وهو مردود على من يدعيه .. لأن نصوص القرآن والسنة واضحة قاطعة الدلالة على عموم مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وشمولهما كل افراد الأمة لا فرق بين رعية وراع ..

ومنهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ على التعميم أيضا ـ هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وحدد وسائله ومراتبه .. بادئا من « التغيير باليد » الى « التغيير باللسان » الى «التغيير بالقلب» حسبما بيناه في ردنا الأول .. (« الشرق الأوسط » ١٩٨٢/٥/٧) وهذا المنهاج ايضا عام لا يختلف باختلاف من يوجه اليه الأمر والنهي لأن الكل امام دين الله وشريعته .. وأحكامه سواء !! . واولى بمن ينصب نفسه للدفاع عن الحاكم الظالم أو المنحرف عن الصراط المستقيم ـ أن ينهاه .. عن ظلمه وجوره وفجوره ..

هذه هي النصيحة ـ التي جعلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقا متبادلا للمسلمين وواجبا عليهم ـ وجعلها لب الدين .

اذا كنت يا شيخ جمال مصرا على الدفاع عن ظلم الحكام وفسق الولاة وانحرافهم فأنت حر فيما تضع فيه نفسك .. لكن ان تزعم أنه الاسلام وتتهجم على من يصحح لك الفهم فليس ذلك لك !

وحتى لا نترك ثغرة للجدل بالباطل ولنرفع كل التباس حول الموضوع نقول : لنسلم جدلا : أن هناك منهاجا اخر للتعامل مع الحكام غير منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ولنسايرك في دعواك لنرى الناس ما انطوى عليه حديثك وماذا فيه من حق او باطل !!

انك تصف هذا المنهج « المدعى » .. مرة بأنه « منهج مواجهة الرعية للراعي أو الامام أو الحاكم .. بالانكار أو المخالفة .. أو انتزاع البيعة » . ومرة أخرى بأنه « ما صح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من توجيه في التعامل مع الحاكم الظالم أو الفاسق » هذه عباراتك !

ومرة ثالثة تقول : ان موضوع قضيتك : هو « الخروج على الحاكم أو الامام أو ولي الأمر .. (وهذه كلها في نظرك بعيدة وغريبة عن منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .. لنسلم معك جدلا بهذا .. ونسائلك : ما الذي تريد أن تتحدث عنه بالتحديد ؟ حتى يرد ما سقته في مقالك من آراء واستدلالات على أمر بين لا يلتبس ؟!

ما سميته أنت : « منهج مواجهة الرعية للراعي » أهو خاص بالحاكم والامام والراعي .. الذي له شرعيته .. ويتمتع بشروط الامامة التي قررها فقهاء المسلمين ؟ أم عام يشمل من لا شرعية له .. ؟

ثم : هل تدخل الحاكم الظالم .. أو الفاسق .. أو المنحرف عن الصراط القويم في المنهج الذي تتحدث عنه وتطالب الأمة بالتزامه في مواجهة الحكام والرعاة ؟!

ان كلامك كله موهم ملتبس .. يظن من يقرؤه أن الأمر سواء بالنسبة للحاكم صاحب الشرعية والحاكم المغتصب للسلطان .. وبالنسبة للحاكم العادل والحاكم الجائر .. وبالنسبة للحاكم المستقيم والحاكم المنحرف .. فهل الأمر عندك كذلك !!

هل ما سقته من أحاديث شريفة تتضمن وجوب طاعة الامام في المنشط والمكره .. ينسحب على حكام الجور والانحراف ؟! أو هو خاص بالحكام العدول .. الذي يجمعون بين الشرعية والعدل والاستقامة ؟!

ان قلت بالأخيرة فأنت معنا .. ونحن معك ولا قضية هناك ! وان قلت بالأولى فقد ظلمت نفسك .. وظلمت الاسلام ولم تكن في هذا ناصحا لله ولا لرسوله .. ولا لائمة المسلمين ولا لعامتهم !! وأنت هنا على النقيض تماما من توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا طاعة في معصية » .

تقول: انني حائر عن القضية الأساسية انحرف عن الحوار حولها الخ ..

وانك أردت أن تزيدني علما ..

ولن يأخذني الغرور أو الكبر .. وانما اقول كما علمني ربي ... « وقل ربي زدني علما » .. وسأكون شاكرا لله .. ثم لك لو زدتني علما باجابة اسئلتي حول النصوص والافكار التي أردت بها أن تخرجني من الحيرة !!

وتقول انني اغفلت استدلالاتك بما صح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في التعامل مع الحاكم الظالم او الفاسق وقد عدت الى مقالك الأول ومقالك الثاني لأتثبت من استدلالاتك مرة اخرى .. فلم اجد سوى ما يأتي . اما المقال الأول فليس فيه مما يخص الحكام الظالمين والفاسقين شيء واضح ! كل ما رويته هو

١) « خيار ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم .. قالوا يا رسول الله : افلا ننابذهم .. ؟ قال لا : ما اقاموا فيكم الصلاة الا ان تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » حين يصل امر العلاقة بين الحاكم والامة الى هذا الوضع .. بغض متبادل ولعن متبادل .. فهذا يعني ان هؤلاء شرار الائمة او الحكام هذا رغم انهم لم يرتكبوا كبيرة كترك الصلاة ..

ولا ما هو كفر صراح يكون عند الناس فيه من الله برهان

واذن فمفهوم الحديث انهم اذا عطلوا الصلاة ، ليس بمسمع الناس منها .. وانما بتقاعسهم عن امامتهم فيها ـ واقامتها شعيرة معظمة ـ بين المسلمين .. فقد حلت منابذتهم بالسيف ؟! كذلك .. اذا ارتكبوا ما يعد كفرا بينا .. حلت ـ بل وجبت منابذتهم بالسيف كذلك .. والسؤال هو : تعطيل شريعة الله جملة .. وموالاة أعدائه واعداء الاسلام .. مما يدخل في اطار الحديث ام لا ؟!

٢) حديث : من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية ـ والحديث يوجه الفرد المسلم .. اذا اصابه ـ كفرد ـ شيء يكرهه من أميره .. « الشرعي » .. الذي تقف الجماعة وراءه .. ان يصبر على ما أصابه .. والا يسوغ لنفسه ـ بدافع شخصي ـ أن يتصرف تصرفا يفارق به الجماعة .. ويخرج عليها ، لكن هذا شيء .. والعدوان على حقوق الأمة شيء آخر .

٣) حديث « من اتاكم واموركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم فاقتلوه » . نعم ! من جاء يفتنة يشق بها وحدة الأمة ويمزق صفوفها .. يجب قتله كائنا من كان ..

لكن السؤال :

اذا جاء حاكم او وال بما يشق وحدة الامة .. ويثير الفرقة فيما بينها .. ماذا يكون حكمه هو الاخر ؟! ليس في هذه كلها حماية ولا حصانة .. وإنما هي تحمي وحدة الأمة .. وتؤمنها في وجه من يحاول او يرتكب ما ينال من هذه الوحدة ! لا فرق بين أمير او حاكم .. وبين رعية أو محكوم !

في المقال الثاني : رويت :

١) حديث : « من اعطى اماما صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » ..

والسؤال هو : من هو الامام الذي يجوز للمسلم أن يعطيه صفقة يده وثمرة قلبه ؟ وهل يجوز للمسلم أن يعطي ذلك لحاكم ظالم .. أو جائر أو منحرف ، واذا جهل امره في البداية .. لانه كان يجهل حاله .. وخدع فيه او اذا اكرهه مغتصب سلطة على أن يبايعه .. اتلزمه هذه البيعة ؟

٢) حديث : « ستكون هنات وهنات .. ورفع صوته الا ومن خرج على أمتي وهم جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان » .

يا شيخنا .. الحديث يقول « ومن خرج على أمتي » .. وليس على حاكم ظالم ام ان الحاكم الظالم عندك مرادف للأمة ؟! هداك الله .. وزادك علما !

٣) حديث : «بايعنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السمع والطاعة في المنشط والمكره والا ننازع الامر اهله» ـ ان المنشط والمكره أمور تتصل بالفرد ودوافعه وما يعرض له من أحوال فقد يدعى للجهاد وهو كاره .. أو قد يطلب منه القيام بعمل ما لا يوافق مصلحته أو هواه لكن فيه مصلحة الأمة .. عليه السمع والطاعة .. فذلك شرط الايمان « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

لكن :

لا تنس ان البيعة على السمع والطاعة في المنشط والمكرة انما كانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعصوم عن الهوى .. فاذا أردت أن تطالب بالسمع والطاعة في المنشط والمكرة للحاكم .. فلا اقل من أن تشترط فيمن تطلبها له .. الا يكون ظالما .. ولا جائرا ولا فاسقا ولا منحرفا .

«والا ننازع الامر اهله» نعم من ينازع الامر اهله فهو ظالم !

لكن : متى يكون الأمر في يد أهله حتى لا ينازع ؟! لقد بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان من علامات الساعة ان يوسد الأمر الى غير أهله ..

فهل الظالم .. والجائر والفاسق والمنحرف أهل لتوسيد الأمر ؟ واذ وسد هؤلاء أو توسدوا بالقهر والغلبة .. فهل ترى وجوب طاعتهم وهذه الطاعة تعني نهاية الأمة على أيديهم ؟ « اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظر الساعة » .. لا شيء مما رويت بنافع في قضية الدفاع عن الظلم والانحراف والجور والفسق .. لأن ذلك باطل .. ومعاذ الله أن تجد أو يجد غيرك في حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يدافع به عن هؤلاء ..

وصدق الله العظيم : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا اثيما » . أما ما نقلته عن « ابن قدامة » وغيره من علماء المسلمين فهو حجة عليك وليس لك ! ابن قدامة بدأ تعليقه على الحديثين اللذين رويتهما (من اعطى اماما الخ ..) (ستكون هنات وهنات) بقوله : فكل من ثبتت امامته وجبت طاعته وحرم الخروج عليه وقتاله . لقوله تعالى : « يأيها الذين امنوا أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

« كل من ثبتت امامته .. » هكذا احتاط ابن قدامة لانه عالم أمين متجرد .. ونحن نسائلك : بم تثبت الامامة .. التي توجب الطاعة وتحرم الخروج على من ثبتت له ؟ وهل يمكن أن تثبت هذه الامامة .. مع اتصاف الحاكم بالظلم والجور والفسق والانحراف ؟ وهل الظلم وما معه هنة من الهنات ، التي تحدث عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟!

بقيت كلمة حول قولك : « ولالامام حرمة فوق حرمة الاخرين .. » ونقول لك : ولو كان ظالما .. او جائرا .. او فاسقا او منحرفا ؟ ان للامام « العادل » حرمة ـ وحقا مفروضا على الأمة في السمع والطاعة في المنشط والمكرة .. والخروج عليه منكر .. وباطل .. وحرام ! وهو يستمد حرمته وحقه في الطاعة لا لذاته (فالمسلمون تتكافأ دماؤهم) وانما لانه رمز الأمة .. وجماع كلمتهم ووحدة صفهم والأمان من فتنتهم كما ذكرت فهل ترى في الحاكم الظالم او الجائر او الفاسق او المنحرف هذا الرمز .. وهذه الحصائص ؟

واذا كان من تسميه الامام ـ او الحاكم .. خائنا لامته .. ظالما في حكمه .. منحرفا في سلوكه ـ حسب أوصافك ـ فهل تبقى حرمته .. وفوق حرمة الآخرين ؟ اتذكر كلمة ابي بكر ـ رضي الله عنه ـ « وليت عليكم ولست بخيركم » فمن اين جئت بهذه الفوقية الآثمة ؟

موضوع حديثك ـ حسب زعمك ـ هو القضية الاساسية التي تقول انني انحرفت في الحوار عنها الى الحديث عن الأمر بالمعروف الخ ..

وفي نهاية مقالك : قلت : « هذا ما احببنا ايجازه في بيان حقيقة المنهج الاسلامي في انكار المنكر والأمر بالمعروف .. » وقد تركتنا وتركت القراء معنا في حيرة لا ندري ماذا بالضبط تتحدث عنه .. وماذا بالتحديد تريد ان تقول !! بقي شيء اخير قلت : «موضوع مقالي بـ«الشرق الاوسط» : هو ان الاسلام لا يجيز لكل من هب ودب من عامة المسلمين الخروج على الامام وانما مخالفة الامام لاهل الحل والعقد الخ . ونقول لك : ونحن لا نجيز لكل من هب ودب ان يخرج على امام « شرعي » توافرت فيه « شروط » امامة المسلمين .. ونحن معك ان مخالفة « الامام » ومحاسبته تكون لأهل العقد والحل .. لكن : اذا لم يكن هناك اهل « عقد وحل » ؟ او اذا كان هناك من ينطبق عليهم انهم اهل للحل والعقد لكن غلبوا على امرهم .. وبطش الحاكم بهم .. وغل أيديهم .. وكمم افواههم ورماهم في السجون كالكلاب .. فلمن يكون الحل والعقد ؟